مداخلة :قراءة في ملمحين منهجيين في دراسة التنصير

طالبة الدكتوراه: سلمى بوقفة

أد/ محمَّد بودبان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اليوم الدراسي حول:

التنصير بين جدل الديني والسياسي والقانوني

تنظيم: مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان

كلية أصول الدين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يوم: 20 نوفمبر 2022/ الموافق ل20 ربيع الثاني 1444 هـ

الملمح المنهجي الأوَّل: تحديد الديني من غيره في مفهوم التنصير

وفي اعتقادنا أنَّه يمكننا تتبُّع ذلك من خلال تتبُّع تطوُّر الدعوة النَّصرانية وفي مراحلها التَّاريخية الكبرى، وذلك كالآتي:

1/ الدعوة إلى النَّصرانيَّة ابتداءً من بولس:

يعجبني أن أبتدئ الكلام بكلامٍ كلُّه تزكيَّةٌ من بولس لنفسه حيث يقول: « ولكن لـمّا[1] سرَّ اللهَ الذي أفرزني من بطن أمِّي، ودعاني بنعمته أن يُعلن ابنَهُ فِيَّ لأبشِّر به بين الأمم، للوقت لم أستشر لحماً أو دماً؛ ولا صعدتُ إلى أورشليم، إلى الرُّسل الذين قبلي؛ بل انطلقت إلى العربية، ثمّ رجعت إلى دمشق...».

فكما ترى هو لا يعترف بأحدٍ من البشر وإن تعلَّق الأمر بالتَّلاميذ أنفسِهِم، بل قد اختلف التَّلاميذ في شأنه اختلافاً عظيما، ثمَّ بحسب رواية لوقا تلميذ الشَّاهد والمشهود له، قبله التَّلاميذ بحذر، ثمَّ ما يزال الخلاف بينه وبين بعض التَّلاميذ، وعلى رأسهم بطرس الذي أَعطاه يسوع المسيح مفاتِحَ الكنيسة، وأوصاه أن يرعى خرافه، بل قد وسمه بولس بالنِّفاق، وكان من جوهر الخلاف بينهم ما يتعلَّق بالختان وشرائع التَّوراة فيما له تعلُّقٌ بالأمميِّين، وكان النَّصر دوماً لبولس على الذين أرسلهم المسيح ليبشِّروا الأمم جميعاً بإنجيل الحياة، والرَّاوي إمَّا بولس نفسه، أو تلميذه.

قال بولس: « ولكن لـمَّا[2] أتى بطرس إلى أنطاكيَّة قاومتُهُ مواجهةً لأنَّه كان ملوماً، لأنَّه قبلما أتى قومٌ من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم؛ ولكن لـمَّا أتوا كانوا يؤخِّر ويُفرِزُ نفسه،

---

[1]- غلاطية 1: 15-17.

[2]- غلاطيَّة 2: 11-16.

خائفاً من الذين من الختان. وراءى معه باقي اليهود أيضاً، حتَّى إنَّ برنابا أيضاً انقاد إلى ريائهم. لكن لمَّا رأيت أنَّهم لا يسلكون باستقامةٍ حسب حقِّ الإنجيل، قلت لبطرس قُدَّام الجميع: إن كنت وأنت يهوديٌّ تعيش أمميًّا لا يهوديًّا، فلماذا تلزم الأمم أن يتهوَّدوا؟ نحن بالطبيعة يهودٌ ولسنا من الأمم خطاةً، إذ نعلم أنَّ الإنسان لا يتبرَّر بأعمال النَّاموس، بل بإيمان يسوع المسيح...».

هذه الحيثيَّات —وغيرها كثيرٌ– حملت الناقدين من أهل الإسلام خاصَّة على القول إنَّ ما جاء به المسيح عليه السَّلام وما كان عليه شيءٌ؛ والذي اعتُمِدَ ممَّا يُنسب إلى دينه شيءٌ آخر؛ والذي نسب ذلك واعتمده هو بولس الملقَّب رسولاً. واعتبروا بحقٍّ أنَّه لا[1] يعتبر بولس المبشِّر المسيحي الأوَّل فقط، بل يعتبر واضع أسس التَّبشير المسيحي العالمي ... فهو بحقٍّ مؤسِّس علم التَّبشير، وقد نجح في هذا المضمار أيَّما نجاحٍ.

كما قد نجح في تكوين تلاميذ له أوصاهم بالدَّعوة، ولكن وفق منظوره لها كقوله مثلاً لتيموثاوس: « اكرِزْ بالكلمة[2]، أُعكُف على ذلك في وقتٍ مناسبٍ وغيرِ مناسِبٍ؛ وبِّخ، انتهر، عِظ بكلِّ أناةٍ وتعليمٍ. لأنّه سيكون وقتٌ لا يحتملون فيه التّعليمَ الصحيحَ، بل حسب شهواتهم الخاصَّة يجمعون لهم مُعلِّمين مُستَحِكَّةً مسامِعُهم، فيصرفون مسامعهم عن الحقِّ، وينحرفون إلى الخرافات».

2/ الدَّعوة إلى النَّصرانيَّة إلى الرُّبع الأوَّل من القرن الرَّابع:

[1]- محمّد أمير يكن: يهوذا الأسخريوطي على الصليب، (ط1)، دار اقرأ للطباعة والترجمة والنشر والخدمات الإعلامية، مالطا، 1990، ص 303.

[2]- 2 تيموثاوس 4: 2-4.

لقد تميَّزت الحقبة الزمانيَّة من بعد المسيح عليه السَّلام، وإلى غاية إصدار مرسوم ميلانو سنة 313م بحصول اضطهادٍ عظيمٍ للنَّصارى، أوقعه عليهم الرومان واليهود، وقد ورد الكلام عن ذلك في سفر أعمال الرُّسل وغيره:

- « وحدث[1] في ذلك اليوم[2] اضطهادٌ عظيمٌ على الكنيسة التي في أورشليم، فتشتّت الجميع في كورِ اليهودية والسّامرة، ما عدا الرّسل. وحمل رجالٌ أتقياءُ استفانوس وعملوا عليه مناحةً عظيمةً. وأمّا شاوُلُ فكان يسطو على الكنيسة، وهو يدخل البيوت ويجرُّ رجالاً ونساءً ويسلِّمُهم إلى السِّجن ».
- وقال بولس لأهل تسالونيكي: « حتّى[3] إنّنا نحن أنفسنا نفتخر بكم في كنائس الله من أجل صبركم وإيمانكم في جميع اضطهاداتكم والضيقات التي تحتملونها؛ بيِّنةً على قضاء الله العادل أنّكم تُؤهّلون لملكوت الله الذي لأجله تتألَّمون أيضاً. إذ هو عادلٌ عند الله أنّ الذين يُضايقونكم يُجازيهم ضيقاً؛ وإيَّاكم الذين تتضايقون راحةً معنا عند استعلان الرّبِّ يسوع من السماء مع ملائكة قوّته، في نارِ لهيبٍ، معطياً نقمةً للذين لا يعرفون الله، والذين لا يطيعون إنجيل ربِّنا يسوعَ المسيحِ الذين سيعاقبون بهلاكٍ أبديٍّ من وجه الرّبِّ ومن مجد قوّته».
- وقال أيضاً: « ولكن تذكّروا[4] الأيَّامَ السّالفة التي فيها بعدما أُنرتم صبرتم على مجاهدة آلامٍ كثيرةٍ. من جهةٍ مشهورينَ بتعييراتٍ وضِيقاتٍ، ومن جهةٍ صائرين شركاء الذين تُصُرِّف فيهم هكذا».

---

[1]- أعمال الرسل 8: 1-3.

[2]- يوم رجم إستفانوس واستشهاده: انظر قصّته في أعمال الرسل، الإصحاح السابع.

[3]- 2 تسالونيكي 1: 4-9.

[4]- العبرانيين 10: 32-33.

وقد تميَّزت هذه الفترة ببطولات كثيرة للمؤمنين دوَّنتها كتب التَّواريخ المختلفة، وسُفِك فيها الدَّم النَّصرانيَّة فجرى أنهاراً. وفي خضم تلك الأحداث نمت المذاهب المختلفة حول المسيح عليه السَّلام ودينه، وتنوَّعت الكتابات حولهما واضطربت.

وخلاصة القول ههنا أنَّ الزَّمان آنذاك كان حرباً على النَّصرانيِّ، ولا يمكننا أن نتبيَّن منه إن كان النَّصرانيُّ مسالماً أم لا؟ وكانت الدَّعوة إلى النَّصرانيَّة ذات طبيعةٍ دينيَّةٍ خالصةٍ؛ ذلك أنَّ النَّصرانيَّة لا شوكة لها آنذاك، ولامنعةَ لها، بل كانت القوى متكاثرةً عليها.

3/ الدعوة إلى النَّصرانيَّة من القرن الرَّابع إلى بدايات النهضة الأوروبيَّة:

وتميَّزت هذه الحقبة بدخول أداة السيف جنباً إلى جنبٍ مع الحرف شيئاً فشيئاً حتّى لا يبقى إلاَّ السَّيف تقريباً، فكان ثمَّ انقلابٌ للمُضطَهَد إلى مضطهِدٍ، وبنوعين من الاضطهاد:

- اضطهادٌ داخليٌّ: وهو اضطهاد المسيحي للمسيحي المهرطق المخالف للإيمان القويم.
- اضطهادٌ خارجيٌّ: وهو الاضطهاد المسيحي للوثنيِّين –والمسلمون عندهم منهم– واليهود، وسائر من لا يؤمن بالنَّصرانيَّة.

وشهدت هذه الحقبة الزمانيَّة المدروسة الكثير من الفظاعات والشَّناعات والجرائم التي ارتكبتها الكنيسة باسم الرَّب يسوع، ويدلُّنا على ذلك التمعُّن في الكتابات التي تكلَّمت عن الأشياء الثلاثة الآتية:

- أوَّلاً: تاريخ انتشار المسيحيَّة في البلاد الأوروبيَّة.
- ثانياً: التَّاريخ الأسود للحروب الصَّليبيَّة.
- ثالثاً: تاريخ سقوط الأندلس وما تلاه.

ولكثرة الأمثلة، وطول العرض فيها، نحيل القارئ الكريم على كتب التَّاريخ العامَّة والخاصَّة، والتي تكلَّمت عن هذه الحقبة المتطاولة.

5/ الدعوة إلى النَّصرانيَّة في العصر الحديث:

وهذه المرحلة الزمنيَّة من عمر الدَّعوة إلى النَّصرانية إنَّما هي امتدادٌ للمسارات التَّاريخيَّة السَّابقة، ووليدةُ النَّتائج التي مرَّت بها ظروف الكنيسة، وهي ذات ارتباطٍ بالمرحلة السَّابقة أعني الحروب الصليبيَّة بشكلٍ أساسٍ، وانحسار ظلِّ الإسلام عن بلاد الأندلس، حيث يظهر ههنا على مسرح الأحداث ما يسمَّى بالـ: "الاستعمار الأوربي الحديث". والذي كانت بداياته – بل واستمرَّت كذلك – مرتبطةً بالكنيسة وسلطانها، حتَّى وإن لم يكونا لصيقين دوماً.

ولعلَّ من أبرز النَّماذج التي من شأنها بيان ما سبقت الإشارة إليه، تلك الحملات التي سارت إلى الكشف عن العالم الجديد والتي اتَّحد فيها الجيشان: العسكري والتَّنصيري وانتظما في سلكٍ واحدٍ؛ يتَّفقان في الهدف والغاية، ويختلفان من حيثُ دقائق التَّنفيذ، ونوع الأسلوب أو الوسيلة في بعض الأحيان: يأتيان في سفنٍ واحدةٍ ولكنَّ العسكريَّ يقتل، والقسِّيس يمسح الدِّماء، العسكريِّ يُبَتِّم، والقسِّيس يمسح الدُّموع.

وخلاصة الأمر أنَّ المنصِّر يحتاج إلى الآلام، والكوارث والنَّائبات، والجوع والمرض، والفقر والموت؛ ونحوها من فظائع الأمور؛ فإن لم يجدها احتاج إلى من يُوجدها له لتظهر آثار نعمته على الأفراد والشُّعوب والتي تكون آمنةً مطمئنَّة قبل وفود المحتلِّ عليها، تلك الطمأنينة والوداعة والأمن نترك أحد رجال الدِّين المسيحيِّين الذين عايشوا أحداث دخول

العالم الجديد، وكان شاهد عيانٍ على ذلك ليقول: « غير[1] أنَّني أريد هنا أن أعترف بثقةٍ مطلقةٍ بأنَّ الهنود لم يكونوا مسؤولين عن هذه الحروب [يقصد حروب الإبادة ثمَّ المقاومة] وإنَّهم كانوا أكثر طيبةً ومسالمةً من رهبان الأديرة، فلم يرتكبوا ذنباً واحداً مع المسيحيِّين، بل إنَّهم برغم كلِّ فظاعات المسيحيِّين بهم لم يعرفوا الحقد أو الظغِينَةَ أو الانتقام. ولقد عاشرتهم فلم أعرف فيهم العنف؛ بل إنَّ عنفهم حين يظهر فيهم أشبهُ بعنف الأطفال في الثَّانية عشرة».

وأنت ترى أنَّ في الوصف السَّابق لأحوال الهنود وطبيعة نفوسهم واجتماعهم، أنَّ المنصِّرين سيجدون صعوبةً في بيان الفرق بين ما عليه الهنود، ودين المحبَّة والسَّلام الذي يحملونه لهم، فلا بدَّ إذن من تغيير الظروف والأحوال النَّفسيَّة والاجتماعيَّة ليظهر الفرق؛ وهو ماحقَّقه لهم أعمال الغزاة، يقول المطران بوتولومي دي لاس كازاس:

«لقد[2] غشي الإسبان هذه الخراف الوديعة غشيان الذئاب والنُّمور والأسود الوحشيَّة التي لم تجد طعامها أيَّاماً وأيَّاماً. ومنذ أربعين سنةً وهم يفتكون بها ويعذِّبونها ويُبيدونها. كلَّ يومٍ فظاعةٌ جديدةٌ غريبةٌ مختلفةٌ، لم نسمع ولم نقرأ عن مثلها من قبل».

وقبل أن أواصل الكلام يُعجبني أن أقتصَّ كلاماً آخر من شهادة المطران دي لا كازاس، نستوضح من خلاله امتزاج الغرضين: الاستعماري والدِّيني في بوتقةٍ واحدةٍ؛ وإليك قوله: « قتل[3] المسيحيُّون كلَّ هذه الأنفس البهيَّة وفتكوا كلَّ ذلك الفتك باسم الدِّين ليحصلوا على الذهب ويكتنزوا الثروات ويصلوا إلى مراكز أكبر من أشخاصهم. إنَّ جشعهم وتطاول

---

[1]- المطران بوتولومي دي لاس كازاس: المسيحية والسيف: وثائق إبادة هنود القارة الأمريكيَّة على أيدي المسيحيِّين الإسبان، رواية شاهد عيان؛ت سميرة عزمي الزَّين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانيَّة، (دب)(دت)، ص33.

[2]- المسيحيَّة والسَّيف: مرجع سابق، ص 24.

[3]- المرجع نفسه، ص26.

شهواتهم الجامحة، أودى بهم إلى احتقار هذه الشُّعوب المتواضعة الحالمة الودودة ونهب ثروات هذه الأراضي الخصبة البهيجة (إنَّني أقول الحقيقة لأنَّني شاهدتها بأمِّ عيني). كان المسيحيُّون ينظرون إلى الهنود الحمر لا كما ينظرون إلى الحيوانات — ويا ليتهم اعتبروهم حيوانات- بل أقلَّ قدراً من الدَّوابِّ، وأحطَّ شأناً من الزَّبَل».

وإذا كان الأمر على ما وصفنا، فإنَّ الاستعمار والتَّنصير أصبحا بصورةٍ جليَّة في الزمن المعاصر وجهين لعملةٍ واحدةٍ؛ وهو ما جعل دعاةَ التَّحذير من التَّنصير لا يرون إلاَّ الجانبَ سيِّئَ النيَّةِ من التَّنصير، وهو الاستعمار والاستعباد، ونهب الخيرات والثَّروات، وتدمير الوحدة: لغويَّةً كانت، أم دينيَّة، أم ثقافيَّة، أم وطنيَّةً..؟

والخلاصة أنَّنا نعتقد أنَّ المقصود قد صار أكثر وضوحاً من خلال توزيعنا للكلام على حقبٍ زمانيَّة متمايزة من تاريخ النَّصرانيَّة؛ وكان غرضنا الأساس أن نرى مدى الالتصاق أو التَّباعد فيما بين التَّنصير ودين النَّصرانيَّة؛ فالتَّنصير –إذا قلنا إنَّه هو الدَّعوة إلى الدِّيانة النَّصرانيَّة– قد ابتدأ دعوةً دينيَّةً خاصَّة ثمَّ عمِّمت إلى جميع النَّاس ثمَّ التصق بها السَّيف ثمَّ ازداد جور السَّيف ثمَّ التبست الدَّعوة بكلِّ غرضٍ دنيويٍّ خسيسٍ ودنيءٍ. وإذا قلنا بالحكم الأخير، فليس معنى ذلك أنَّنا ننفي وجود الدَّعوة الدِّينيَّة في هذه المرحلة الأخيرة، أو وجود الكثير من الدُّعاة النَّصارى ذوي أغراضٍ دينيَّةٍ صادقة؛ ولكنَّ العبرة بالغالب، والأعظم أثراً.

ويمكننا أن نستذكر مجمل ما مرَّ بنا كالآتي:

- النَّصرانيَّة في زمن المسيح عليه السَّلام كانت ديانةً دعويَّةً؛ ولكن بطريقةٍ مخصوصةٍ ببني إسرائيل. دلَّنا على ذلك محكم أقوال المسيح عليه السَّلام في النَّصِّ الإنجيليِّ الذي بين يدي النَّصارى اليوم؛ ودلَّنا عليه كذلك فعل المسيح في الدَّعوة، الذي لم يَعْدُ الحيِّزَ الجُغرافِيَّ الذي شَغَلَهُ بيت إسرائيل.

- دلَّنا النَّصُّ الإنجيليُّ أنَّهُ بعد قيامة المسيح عليه السَّلام – فيما تزعم النَّصارى– أوصى تلاميذه وصيَّةً مخالفةً للوصيَّة الأولى، وهي أن يدعوا إلى دينه كلَّ الأمم بلا استثناءٍ؛ وأوضحنا – وبكلامٍ لمسيحيِّين– أنَّه قد ثبت كون بعض تلك الفقرات قد زيدت، ولم تكن موجودةً في أقدم النُّسخ المعروفة لدينا. كما أنَّ نصوص سفر أعمال الرُّسل تُنبئنا أنَّ خلافاتٍ وقعت بخصوص دعوة الأمميِّين ومعاملتهم بين التَّلاميذ وبين بولس الرَّسول صاحب ما يقارب نصف العهد الجديد؛ وأمَّا من حيث الأثر فيكاد يكون صاحب العهد الجديد بأكمله؛ وقد كان صاحب الغلبة في تحديد طبيعة الدِّين على الجميع، بمن فيهم بطرس صفا الحواري الذي أعطاه المسيح عليه السَّلام مفاتيح الكنيسة. ويمكننا القول إنَّه ههنا حدثت نقطة التَّحول للدَّعوة الدِّينيَّة النَّصرانيَّة من الخصوص إلى العموم.
- في فترة الاضطهاد الذي وقع على النَّصارى وإلى غاية مرسوم ميلانو سنة 313م كانت الدعوة النَّصرانيَّة ما تزال دينيَّة بحتةً، ولكن على أصول بولس وغيره كما أسلفنا.
- بعد اتِّصال الدِّين النَّصراني بالحكم الرُّوماني فما بعده، صار للنَّصارى القُدرة على حمل السَّيف [فعدم حمله سابقاً كان لعدم القدرة عليه عموماً]؛ فلمَّا حملوه سلَّطوا بعضه على أنفسهم بسبب الانشقاقات التي وقعت في الكنيسة، وظهور الهرطقات المختلفة. وسلَّطوا الجزء الآخر على غيرهم ممَّن لا يَدِين بدينهم.
- لـمَّا استحكمت حلقات السيطرة السياسيَّة للكنيسة على المشاهد كلِّها، امتزجت الدَّعوة الدِّينيَّة بالدَّعوة السياسيَّة امتزاجاً كاملاً؛ وطغت أحكام الدُّنيا على حكَّامها الدِّينيِّين، فصار من الصعب التَّمييز فيما بين الدِّينيِّ والدُّنيويِّ.
- لـمَّا جاء الاستعمار الأوروبيُّ الحديث، والذي يمكننا أن نقول إنَّه نشأ – في قليل أو كثيرٍ– في أحضان الكنيسة، ومن قبل رجالاتها، وفكرها، قام الاستعمار بتوظيف الدَّعوة الدِّينيَّة –وبمشاركةٍ فاعلةٍ لأصحابها– لتحقيق أطماعه، ولم يدَّخروا في ذلك

وسيلةً ولا أسلوباً مهما تكن قيمتهما الماديَّة والمعنويَّة؛ وهنا تتجلَّى خطورة التَّنصير، وآثاره السيِّئة في عالمنا اليوم، وهو ما يقتضي الدراسة، والتَّحليل، وإيجاد الحلول ثمَّ تطبيقها.

الملمح المنهجي الثاني: التفريق بين المباشر وغير المباشر في وسائل التنصير

وينبغي ههنا أن نبيِّن أنَّ عمليَّة الفصل بين المباشر وغير المباشر عمليَّة معقَّدةٌ في كثيرٍ من الإجراءات؛ إذ نجد في بعض الأحايين امتزاج الأمرين جميعًا؛ ولذلك قد يجد القارئ لهذه المادَّة تعريجاً على بعض الوسائل والأساليب المباشرة، ولكن الهدف من ذلك إنَّما هو بيان المخفى من المعلن؛ أضف إلى كلِّ ذلك أنَّك قد تجد الوسيلة مباشرةً، والأسلوب غير مباشرٍ، فيحتاج الأمر إلى تمحيصٍ وبيانٍ، وحسن عرضٍ.

إنَّ الصراع الفكريَّ -سواءٌ اتَّخذ الشَّكل الدِّينيَّ الصِرف، أو اختلط بأنواعٍ أخرى من التوجُّهات الفكريَّة، أو استُعين به لنُصرةِ فكرةٍ قد لا تكون دينيَّة في الأساس- فإنَّه يحتاج إلى وسائل وأساليب في اتِّجاهين:

- اتِّجاه الحماية الداخليَّة لهذا الفكرلاوأصحابه.
- واتِّجاه الهيمنة على الفكر المخالف وأهله.

وتلك الوسائل والأساليب يُنوِّعها المتصارعون حتَّى تُؤتي فاعليَّتَها بين ماديَّة وفكريَّة؛ وبين مباشرة وغير مباشرة؛ وتَكثُر الكيفيَّات والمراوغات.

والاستعمار -كراعٍ للصراع وللتنصير في الماضي القريب- وإن كان على مرِّ التَّاريخ تغلب جوانبه في البطش الماديَّة على الفكريَّة إلاَّ أنَّه في العصر الحديث غلبت حربه الفكريَّة

على ترساناته الإباديَّة الأخرى؛ حتَّى إنَّ آثاره لم تزُل بالكلِّيَّة بمجرَّد خروجه من الأراضي التي كان بها.

ومن هنا يحتاج المرء إلى النظر الواعي والجادّ في أساليبه ووسائله: جمعاً وتحليلاً وتمحيصاً واستنباطاً؛ والوقوف بشكلٍ أساسٍ على الكيفيات التي يوظِّف بها الوسائل والأساليب، والطُّرق التي يؤلِّف بها فيما بينها؛ فنحن نرى أنَّ معرفة الكيفيَّة ذات أهمِّيَّة بالغةٍ في الخَطْوِ نحو المواجهة والعلاج.

ويمكننا أن نتلمَّس الفروق بين الوسائل والأساليب بين مباشرة وغير مباشرةٍ، بوضع بضعة معايير لذلك –ولن نُكثر منها– وذلك كالآتي:

1/ معيار الظهور والخفاء:

حيث تكون الوسيلة أو الأسلوب مباشِراً حين يكون له أو لها ظهورٌ يُدرَك بأدنى التأمُّل؛ ويكون الأمر غير مباشرٍ حين يكون الخفاء ملقياً بظلاله كُلاًّ أو جزءاً على الوسيلة أو الأسلوب.

وإذا بحثنا عن أثر الوسيلة غير المباشرة من خلال هذه الحيثيَّة لوجدناه أبلغ من المباشر؛ لأنَّ الأساس في الانخداع الفكري هو عدم إدراك المقصود بالمواجهة وكيفيَّتِها؛ وبخاصَّةٍ حينما يتعلَّق الأمر بالعداء الفكري المخطِّط للاستيلاء والاستعمار.

2/ معيار الوضوح والإبهام:

لقد فُطِرَ النَّاس على حبِّ الخير، وكراهة الشرِّ عموماً؛ ولذلك لا تجد صاحب الأهداف الباطلة مصرِّحاً بأهدافه إلاَّ وهو ملبِسٌ لها لَبوساً من الحقِّ؛ ولا يمكن له ذلك إلاَّ بسلوك سبُلِ الإبهام والإيهام، باستغلال معلوماتٍ معيَّنةٍ، وفق ترتيبٍ وبناءٍ قريبٍ من المنطقيَّة في الطَّرح.

3/ معيار البساطة والتَّعقيد:

حيث عادةً ما تكون الوسائل والأساليب المباشرة بسيطةً (وهو ما يقتضيه وضوحها وظهورها، واللجوء إليها لأوَّل وهلة)؛ وتكون غير المباشرة –عادةً– معقَّدة (وهو ما يقتضيه خفاؤها وإبهامها، وإحكام حُبكتها). ويمكننا ههنا أن نلحظ أنَّ الاستعمار الفرنسي في الجزائر قد بذل جهوداً كبيرة بالغة الدقَّة والتَّعقيد؛ ويفضي بعضها إلى بعض من أجل إحكام قبضته على البلاد الجزائريَّة إلى الأبد؛ لتتشكَّل لديه منظومة متكاملة في ذلك.